الأرق ومرايا الوهم

من مجموعة قصص غرائب الرجال اجهل اسم الكاتب كوني عثرت على المجموعة القصصية بين ثنايا الكتب المتهرئة والتى أتى النمل الأبيض(الأرضة) على اغلبها لذلك هي محاولة لإنقاذ القصص بالرغم من عدم وجود من يقراها من العراقيين كونهم قد انشغلوا بالتخلف أكثر من التحضر وما هذه الرواية إلا نقش اثري يدل على انه كانت حقبة ما مرت بتاريخ العراق فيها هامش من الثقافة.

مكاني الجديد ، أو غرفتي الجديدة ، كانت كما توقعت ان اجدها تماما ... بائسة صغيرة ، مدلاة السقف ، ومجردة من كل ما هو ليس ضروريا او مباشرا • نافذة ضيقـــة قد تحطم معظم زجاجها واستبدل بورق مقوى ، وثلاثة اسرة صنعت من ســـعف النخيل ، وحصير أسود مجدول من شرائح القصب ، وباب من الخشب الرخيص سيء الرصف كثير الشروخ ، والذي وضع ليقوم مقام السد الواقي بيننا وبين ضراوة الليل وصمته المتطاول ، وبين عصف الرياح الزاحفة عبر القفر الفسيح المترامي •

ان للوحشة ـ مذاقا ساما ـ اذا ما تضافرت على رجل معزول في بقعة بدائية فجة ... رجل منغمر بخطوط تطلعاته ومدار حياته، يصارع ـ غريزيا ـ ليضمن خطا ثابتا يستقر عليه ، ثم يمضي مـع التيار ، كالاخرين من الناس ، كل حسب طاقتـــه ، بلا ضجيج ولا غضب •

انا رجل ، كنت ـ كمعظم هؤلاء الناس ـ اتلافى التعقيـــد ومضاعفاته واتجنب التراكمات التي تؤدي الى تلويث المجرى العام لدواخل الانسان الطبيعية ، اذ كنت صـــريحا ايجابيـــا ، اداهم الجرثومة عند اول مكمنها ثم اتقصاها واستأصـــلها قبل ان تلد وتتكاثر ... كنت انساب في مسارب الحياة هادئا طيّعا دون تذمر او مرارة ، لا لكوني ضعيفا متخاذلا ، بل لايماني ـ رياضيا ـ بان ما يجري حولي وما يربط حركة دواخلي بعضها الى البعض ، ان هو الا النتائج الحتمية القصوى لعلة نواتي ذاتها ، واني اذا مـــا تمردت وثرت على نواتي هذه ، فلن اسيء الا الى (طاقة تركيبي) ذاتها ، ولن احطم الا المجرى المنطقي لميكانيكية قواي وابعادها .. ولماذا ؟ ألست « خلية ونواة » ، وبناء موقوتا ومبرمجا ..؟ ألست اتعامل وما يحيط بي عن طريق حواسي الخمس .. ؟ اللون والضوء وصفات الاشياء ، تقضي وتموت بمعزل عن بصري ... وبدون مجساتي التجريبية ، تغلق كل نوافذي ، فاتخشب وأجف واتهشم وانتهي ارادة وفعلا .

انني سجين « بايولوجيا » ولذلك ، فانا لا يسعني الا أن أدان بهذا (المدار) ... قد اكون مخطئا او مغفلا او معتوها ، ولكني لا املك الا ان اعترف : ان لبعض الازمنة والحالات ، ثمة (اشياء) غامضة عميقة جائحة ، تسمّر خطاي وتكبلني من الداخل، لتفعل بعد ذلك ما تشاء ، بعدما اوهمتني بانني لم اكن انفذ الا ارادتي انا ، وفعلي انا . وما محاولاتي لتمزيقهـــا والافلات من طوقها ، الا ضرب من ضروب الرفض النظري المجرد .

تحدث احدهم عن الحلم : الحلم بديل تصـــاعدي لواقع منبوذ ... احلم ... عليك ان تحلم ... جرّب الحلم ، انه منفذ وخلاص وتثوير لذبذبات الاعماق الهزيلة المترددة ولنسف امراس الداخل .

كنت احس ـ بغموض ـ : ان الواقع والوهم رمزان مبهمان لا يفصل بينهما الا ستار هلامي ، لا تحدد وجوده او كثافتـــه الادرجة الزاوية التي نظل منها لنشـــهد منظورا آخر ومرئيات أخرى . ومن خلال درجة الزاوية الجديدة ، يتراءى لنا (الحلم). (ارادة وفرضا) يسوقان الى توليد طاقة مناقضة ، املا بصـــيغة اخرى .

لقد ادركت بعد مراحل مديدة من ذلك الطواف (الهلامي)، انه تزييف بائس ومهين لمواقعي ، وانني لم اتجاوز نقطة مركزيا الا (ضبابيا) ، ولا جديد من ثم ، غير (خط الاتجاه) ، ولا شيء غير تناوب الضوء والظل ... يحفران جهاتي الست بلجاجة وعناد مريعين .

وبالرغم من كل ذلك ، فقد حاولت مخلصا ان اربط بين هذين العالمين : (ارادة لنواة وضـــبابية الحلم) ... وتجاوزا لمنطقي الرياضي الصرف حيال مسيرة حيـــاتي ، قررت أن أزاوج بينهما بصبر وتؤدة ، انسياقا ونزعـــاتي لسبر كل جديد ، لكي اخلص بالتالي الى حصيلة تتفق وجوهر (لبنتي) دونما تفريط ، ولكي احصل من ثم على ذلك التقرير البشري العتيـــد الذي تعودنا ان ندعوه (السعادة) .

كثيرا ما تساءلت : ما الذي ابغيه من حياتي ...؟ لدي بيتي المشمس الانيق الذي شيد على اجمـــل ما يلائم عافيـــة المرء وخصوصياته ... ولدي غرفتي الرحبة الوثيرة الهادئة ، دافئـــة ناعمة ، كأبهج عش لزوجين رصينين ، أو بين (نواتين) تلاحمتـا لتقاتلا ازدواجيا نحو خلاصة متبادلة ومصير واحد .

كنت اعتقد ان التنزه في حقول المعرفة والتفرس والحملقة في دوائر التاريخ وتحولات البشر ـ افقيا وعموديا ـ ستضيف الى لبابي (مركبات) اخرى ثم تدعم قشرتي الخارجية وتزودني بدرع أصلد لمجابهة النزوات الجامحة والسخف ومطرد الهراء والمراوحة داخل جيوب متهرئة عفنة ... ومن ثم ، وذلك قمة ما كنت اصارع لاجله : هو التخلص من الكائن الهمجي المقرف المتغلغل في صلبي، كوريث غاب وريب دغل ... واخيرا : لكي تصفو عيناي فأرى من نقطة آدمي جاوز عصورا جيولوجية كالحـــة ، كان يجب ان تكون كفيلة بغسله وتعقيمه من الخبث والاورام والآفات ، وقتل الاثرة وروائح الدم في أنيابه ، ليستوي ـ بعد ذلك ـ قيما وطيبة، بعيدا عن المراوغة والزيف والتمثيل .

ومن خلال مكتسباتي (الخارجيـــة) وتجربتي المحضـة ، توصلت الى سبر أغواري ـ نسبيا ـ وتفحص المحيط العام لجسدي، لأشـد قبضتي على مركزي وقمة رؤيـاي ، فاكتشـف قواعـدي واعري مكنوناتي . كنت اشمئز من المخلوقات التي تكمن وراء جلودها او تتسلل الى اهدافها من وراء (رغبات) الاخرين . انتهيت الى ان الانسان يجب ان يُوهَب كما هو قـــد وَهَب ، دون

المساس ولو بجزىء ضئيل من محيطه أو محيط الآخر ، ان يحب الاخر كهدف ومصير ، وان يكون محبوبا ، كهدف ومصير ونقطة نهاية • ان الانسان ـ كما فهمت ـ ليس رقعة ثلاثية البعد ، وقد يعيش احقابا مديدة وهو في غفلة عن بعده الاخر ، ويوم يعثر على هذا البعد سيصغي الى وقع اصداء الانسان الآخر بخلفية متفائلة ومضيئة وبدون ردود فعل محاكة ••• يتجرد ليرى ، ويتجرد ليتخذ موقفا ، ويتجرد ليفعل ، ثم ، يتجرد ليحب •

× × ×

كنا ثلاثة معلمين • اتفق والتقينا في هذه القرية النائية ، بناء على رغبتنا نحن ، بعد ان سئمنا الاقامة في بغداد • بادر كل منا الى مبادلة مركز عمله مع زميل له كان يعمل في هذه القرية بالذات ، نظرا لما كانت تتسم به من عزلة وبداوة وتوغل ضارب في تخوم الصحراء الى ابعد مدى •

كنا ، بخطوات النفي الذاتي هذه ، كمن يهرب من مشاهد مؤذية لم يعد يقوى على تحاشيها ، او يفر من وطأة ثقل نفسي مرهق ، أو عالم كريه مظلم ، طرد منه ولم يعد له مكان فيه • لقد جمعتنا الصدفة وضمتنا القرية واحتوتنا غرفة واحدة ارغمتنا ـ بمرور الزمن ـ على الالفة والتفهم ، ثم التجاوب ، رغم الابعاد النفسية لكل فرد منا • وكنا ندرك جيدا ، ان وجودنا هنا ، وبمثل هذه البقعة من الارض ، وبمحض اختيارنا ، ما هو الا لون من الوان السخط والغضب الذي يعصف في اعماق المرء في لحظة من

لحظات هياجه وثورته على نفسه ... او انه عقاب سلبي لضمير مثقل او حالة قانطة .

لقد سلخنا في تلك الغرفة الطينية اربع سنوات متواصلة ... نأوى اليها متعبين مساء ، لنسمر ونثرثر الى وقت متاخر من الليل ، او لينطوي كل منا على ذاته ويجتر ازمته التي قذفت به الى هذه العزلة والليل والعالم الصغير ... ينطوي على نفسه جامدا ، ليظل بعيدا عن زميليه وعن غرفته وقرينته وليله الموحش ... يطرق براسه الى الارض وكانه لا يرى ولا يحس بمن حوله ، ثم يسحق عقب سجارته بمرارة وتوتر ، ويلقي بجسده تحت دثاره وينام .

طيلة السنوات الاربع ، كنت احرص وابذل قصارى جهدي على ان لا انام الا بعدهما اذ كنت اجد عزاء كبيرا ومتنفسا كبيرا وانا اصغي اليهما طويلا ... قالا لي الكثير ، وتحدثا عن ادق خوالجهما بصراحة وثقة ، وكنت بدوري فـــد فتحت اعماقي وتحدثت ، فوجدا عندي العزاء والمتنفس . كنت انتظرهما حتى يناما ، اذ انني ـ لسبب غامض ـ اكره ان يتأملني انسان آخر وانا نائم ... لا ادرى ، لماذا اشعر بأن المرء اذا ما نام ، يفقد القدر الاعظم من معالم شخصيته ... ينقلب الى جثة صريعة ذات شخير يفتك بالاعصاب ، وذات فم مفتوح يسيل منه خيط مقرف من اللعاب وتتصاعد منه روائح وآهات كابوسية كريهة وغريبة . كانا كذلك ، ولذا ، فقد حرصت على ان انام بعدهما ، وان استيقظ قبليما مهما كلفني الامر .

كنت جالسا ذات ليلة حارة ، ادخن واتأمل هذين الرجلين

أو هذين الوجهين السادرين في نوم سميك وثقيل ... رجـــلان نقيضان يقفان على طرف خيط واحد ، تام كل منهما متوســـــدا شبكة ماضيه ، ملتحفا بعالمه الجديد الطلاء الذي نسجه عبر سنوات (القفر) الاربع ، ليعيد الكرة نحو جولة حياة مغايرة فيعانق زمنه بأرادة جديدة وعين جديدة وحلم جديد .

كان الوجه الاول ، او الرجل الاول : قصيرا نحيفا شديد الاصفرار رطب الانف والشفتين ابدا ... يهوى جمع الصـــور السرية الداعرة ليتصيد الفرص ويخلو بنفســـه في مكان أمين ثم ينشرها أمامه ويحملق فيها ليغيب في تلافيف (حلمه) الذي افلت منه ويستحضر مشهدا حساسا من مشاهد ماضيه ... ثم يغرق في (الاستمناء) أكثر من مرة ، يخرج بعدها شاحبا ساهما مترنحا . وكثيرا ما كنت ارى الى وجهه المربد الغارق بقطرات العرق والى شفتيه اللزجتين وعينيه الملتهبتين الغائمتين بمشهد سري مثير .

امسكت به ذات يوم وقلت له بلهجة جادة ...

— ارى ان تسعى الى الزواج ثانية يا عزيزي (دال) ... هذه مسخرة لن تنتهي من ورائها الى شيء .

نظر الي من خلال عينيه الصغيرتين ، واجاب بحدة ...

— اتعلم ، ان للاهانة الف وجه وقناع ..؟ لقد دأبنا ـ دون ان نشعر ـ على تعاور مفردات وجمل ذوات جذور مطاطية أو سائبة ... قل لي : ماذا نعني بقولنا .. « في منتهى الشرف والعفة » ..؟ انه شرف الجسد وعفته ، اليس كذلك ..؟

اما الانانية والشـــراسة وتتن النوايا والتخطيطات السرية الحاقدة وسلاطة اللسان والكسل واللامبالاة ... اما هذه كلها ، فتبقى مفردات ظيفة بعيدة عن ان تثلم شرفا او تجرح عفة أو تخدش طهرا أو عرضا ... هذا ما تعارفنا واصطلحنا عليه ، اليس كذلك ..؟ اســـمح لي اذن ، ان اعلن كفري واحتقارى وسخريتي بكل ما تعارفنا واصطلحنا عليه .

دهشت من انفجاره المباغت هذا ، ورحت انظر اليه واتقصى في ملامحه جدية ما يقوله وكيف انتهى الى موقفه واحكامه هذه . قلت بحذر ...

ـــ الست تبالغ قليلا ..؟ القيم لا تحدد هكذا ، ولا الانسان .

ـــ يا اخي (جيم) ... انا مخلوق بسيط ، لا املك ولا اريد من العالم اكثر من الرقعة التي تقف عليها قدماي ... قـــد اكون ، ضمن تحـــديدات زوجتي الســـابقة لمفهوم القوة والرجولة ، (ضعيفا رخوا) ..!! لا اكتمك سرا لو قلت لك : (انني سريريا) لست كذلك ، وهي تعرف هذه الحقيقـــة تماما ... ولا ادري من اين وكيف الصقت بي هذه التهمة .

ـــ لعله ضعف آخر ورخاوة اخرى ... قد يكون ذلك ...

ـــ نعم .. لوجاز لك ان تعتبر الثقة بالاخرين ضعفا ، والتغاضي عن الصغائر رخاوة ، فانا كذلك ... اكرر لك يا عزيزي (جيم) انني بسيط ، وانني انحدر ببساطتي الى مســـتوى السذاجة ... لكن (صغائر) زوجتي لم تكن بسيطة ولا

عابرة ، ورغم ذلك فقد حاولت ان ادفع بسـاطتي لتفوز بالغلبة ، غير انني خبت وهزمت ... شيء واحد كان يحز في عظمي وفي عصبي : لماذا كانت تعنفني وتهينني ..؟ كنت كثيرا ما اسمعها تصرخ هائجة .. « انت تافه .. انت تافه ».. في سنوات زواجنا الاولى ، كانت تلجم نزواتهـا وحقيقة مشاعرها وتداهنني مداهنة مريبة ... ثم ، لما حصلت مني وحصلت على جنينها الاول ، القت باقنعتها بعيدا وتنمرت .. اطلقت في وجهي لسانها ومخاليها ، فاصبحت من ثم ، «تافها رخيصا لا عقل له » ..

— من يسمعك ، يعتقد بانك تنزه نفسـك من كل خطأ او نقيصة .

— انا لم اقل ذلك ... نقيصتي الكبرى ، هي انني احببت كل ما طرحته الحياة بين يدي ، دون تذمر او مناقشة ... قـد تكون زوجتي على عكس ذلك ، ولا بأس في هذا ... ولكن لماذا كانت تصـر على اهانتي وتعنيفي ما دمت بعيـدا عن خصوصياتها ..؟ وكثيرا ما تساءلت بحيرة وقلق .. ان كنت رخيصا وتافها ، فكيف ارتضت لنفسـها ان تحسـل مني وتلتصق بصلبي ..؟

لم يسبق لي وان شاهدت لونا من الوان الاحتقار والغضب كما شاهدته في وجه السيد (دال) ... بدت لي سحنته الصفراء وكأنها قد طعنت بلون ازرق ارجواني ... كما لاحت لي عينـاه الذابلتان وكانهما تنفجران بوميض دموي اسود ... شـعرت

بالحرج والضيق ، وفكرت وانا اتحاشى نظراته القاتلة ، في طريقة رقيقة انهي بها ما بدأته واعقبه من كشف ماضيه وتعرية جراحه . وما كدت افتح فمي ، حتى سمعته يسترسل بهدوء ...

— كنت ارى في بسمتها طيبة ناسك ، وفي سلوكها براءة طفل .. فكيف حدث وتحولت هذه الملامح الى سعار دموي حاقد ، وفي ومضة بصر .. ؟ هه .. هه.... صحيح والله ، انني رجل ساذج وبسيط ، جد بسيط والله .. هـه ، هـه ... » في منتهى العفة والشرف « .. ان هذه المصطلحات والمضامين المتبلة ، بات تذهلني وترعبني . قل لي ، اين تجد الحقيقة، وكيف ..؟ : ان تسلم زمامك الى اقرب ماخور وتفتأ سعارك هناك فتهين وتهان ... ام تعتصم وراء تلك المصطلحات والمضامين ، لتطلق سعارك سرا فتهين وتهان .. !! أي المقاييس يمكنك ان تستخدم ، لتصنع الفواصل القاطعة بين دعارة الجسد ؛ ودعارة الذهن والضمير والسلوك ..؟ لقد خذلتني هذه المرأة واهانتني وجرحتني .. ثم ارغمتني على الطلاق ، لأجدها بعد ذلك ، تقف وتزغرد في وجهي وقد استحوذت على كل ما كنت املكه من ضرع وزرع .

— هذا غريب حقا ... ولكن اين كنت انت ..؟ وكيف تم ذلك ..؟

— تم ذلك ، من خلال ما يسمى « الثقة المطلقة » ... لعبة الثقة المطلقة هذه تعني ان تغلق امام من (وثقت به) كل

منافذ الشك والريبة والهواجس ... تفسيرك لهذا (الانغلاق) : انك كنت مستندا ـ قبل كل شيء ـ على كل القيم الامينة والنظيفة في ذاتك انت ... وثقت من قيمك انت ، فوثقت من قيم الاخر من ثم ... اما تفسير (الآخر) هذا لشكك هذه ، فانها : غفلة وسذاجة وغباء ... الثقة : خرافة بلهاء . وهكذا ، لم يخامرني آنذاك اي شك او ريبة في خطط ونوايا زوجتي ... ولماذا اشك وارتاب ... ؟ كنا ـ كأي زوجين ـ نتناول في نقاشاتنا وجدلياتنا الكثير من الامور والقيم والمضامين ، بغية اكتشاف الجانب الاصوب منها ... الحب ـ كما تعلم ـ هو الجذر الاساس لتغذية الثقة ، ومن ثم ، لابعاد اية ريبة فطرية في علاقات الناس حيال بعضهم البعض ... ومن هذه النقطة .. نقطة (الحب) ، اسلمت لزوجتي ـ انطلاقا من زخمي العاطفي ـ مفتاح المنفذ الرئيس الذي يؤدي الى ادق زوايا اعماقي ، وابعد اهتزازات خوالجي النفسية ... كانت الدائرة الكبرى التي ما فتئنا ندور حولها ، أو بالاصح ، ما فتئت هي تدور داخلها وحولها ، هي : الغنية « المستقبل وضماناته » ، ولا شيء غير هذه الاغنية . الضمانات لا تبدو جلية واضحة الا في « وثيقة وامضاء » ، اما نقاء الروابط العاطفية ، وما يحتمه المنطق والاخلاقيات ، بل وحتى الاحاسيس والالتزامات الدينية ، فهي لا تعني الا مجرد فقاعات عائمة ونظريات من السهل ان تطيح بها نزوة طارئة او سورة غضب جامح . الشيء

الذي يعيش ويصـــد ويخلد ، هو (المادي الملموس) ، وما عداه ، فهو لغو وهراء ونفخة رماد . وكنت يا عزيزي (جيم) ، احب واثق ، واغرق في هذا الحب والثقة بهوس وتهافت ، فكان ان سارعت ـ طروبا ـ وسجلت باسمها ـ قانونيا ـ كل ما ملكته يداي .

ـــ قل لي يا اخي (دال) بصراحة : هل كانت زوجتك مثقفة .. اقصد ، هل انها متعلمة ..؟ للاثر الثقافي ـ كما ارى ـ دور معين في تقرير مواقف وتحديدات كهذه ...

ـــ لا شـــك انك تمزح او تحلم ... وان لم تكن كذلك ، فانصحك بأن تطلق لحيتك وتذهب لتعظ الحالمين والخياليين والسكارى ... قد اكون بسيطا غرا ، ولكنني لا افهم ولا ادين بهذين التعريفين .. « مثقفة .. مثقف .. متعلمة .. متعلم » .. هه ، هه .. ماذا تعني بذلك ..؟ ماذا تقصد بالله عليك ..؟ حسنا يا اخي .. اخبرك بأنني قد استظهرت دروس (ابجد .. هوز) كلها ، فشبعت الى درجة التخمة ثم تجشأت ... ومن هناك ، انصرفت الى التربة والمـــاء والهواء الطلق ، اذ انني لا اجيد حصر المعاني بين قوســين وليست لدى القدرة على استحلاب حرف أو استنزاف كلمة .. اقولها ببساطة : لقد عشت لما هو حولي ... استوعبت ما هو قريب مني او ملتصق بي ... والزمن عندي ، يبدأ منـــذ مطلع الشمس ، وينتهي لحظة غلق جفني ... أمـــا غرض الحياة ـ في عرفي ـ فيقتصر على تسليط بصري نحو الداخل

والخارج ... فحين اسلط بصري الى (الداخل) ، فلغرض البحث عن اجدى الحلول التي تقرب ما بيني وبين البسيط والمباشر ... وحين اسلطه الى (الخارج) ، فلكي افهم اين أضع قدمي ، واين مسار الخط المشرق من حياتي ... انني شره ومجنون بهذه الحياة ، اريد ان امتص والعق وافرح واتلذذ بكل دقيقة ، وباوسع وجه من وجوه تاريخي ... في ساعة ما ساسقط وانتهي . حياتي – كما اعتقدت – وجود فاعل ، وساعة ينتهي (الوجود) ينتهي الفعل والحياة ... اردت ان احيا ضمن التلاحمات البديهية الدارجة ... بدون هوامش ولا تقعّر ... ان اولئـــك الذين يجيدون (نفخ الاوداج واستحلاب الكلمـــات) يخيفونني ... اراهـم يمضغون التفل ويمسـكون بتلابيب رقاب بعضهم البعض . تلك افعال لم تكن ضمن قدراتي ، ولن اجرؤ عليها .

— اسلوبك الحياتي هذا ، قد لا ترفضه اية امرأة ، سواء كانت جاهلة ام متعلمة ... انه – كما اظن – لا يسيء اليها ولا يمس سعادتها الزوجية أو الشخصية بأذى ...

— قلت لك انني لا افهم هذين التعريفين « مثقف .. مثقفة » .. قد يصح ان نستعيض عنهما بكلمتين بسيطتين « رجل . . امرأة » .. هكذا يجب ان يقال ، وبدون تعقيد او تزويق .. والزمن ، من ثم ، كفيل بتعرية القشـــرة وكشف اللباب . والان ، اجبني انت على سؤالي ببساطة : هل فكرت ذات يوم بمشروع تجاري او (بصفقة) مالية كبيرة ، أو (بضربة

معلم) تغنيك وتعفيك من قلق الفقر والحرمان ابد الدهر ..؟

— على أية حال ، التفكير في شيء كهذا ليس عيبا او سبّة ، ما دامت الوسيلة نزيهة ونظيفة ... ولكني ـ واقول الحق ـ لم افكر في ذلك ... انا قانع بستواي ومرتاح الى رزقي ..

— حسنا ... أنا ايضا ، لم افكر بشيء كهذا ... ولكني ودون ان ادري ، كنت انا (المشروع التجاري السمين) ... وكنت انا (الصفقة المالية الكبرى) التي استأصلت جذور تراث الفقر والحرمان من عالم زوجتي (المتعلمة) الحبيبة ...

صحت فجأة دون شعور ...

— ماذا ..؟

— لا « ماذا » .. ولا « لماذا » ... هذا هو واقع الامر .. على كل حال ، كنت قد اعددت ـ في خيالي ـ لشريكة عمري ـ وقبل ان اتقدم لاختار ـ كنت قد اعددت لها خطوطا وصفات معينة ... وحين عثرت على تلك الشريكة ، وجدتها تملأ تلك الخطوط وتتفوق على كل الصفات التي حلمت بها . وبعد زواجنا ، الفيتها ـ جسديا ـ فوق ما تصورت والذ ما حلمت ... لم التفت الى تلك (الورقة المزوقة) التي كانت قد حرصت على تسميرها فوق مرآة زينتها ، والتي تعج بالتواقيع والطوابع الملونة ، لكي تبرهن لي او لنفسها ، على انها (مستمسك جامعي) .. كلا ، والله ... لم التفت اليها ولم اعشق تواقيعها وطوابعها ، بل عشقتها هي .. تلك التي

تجلس امام المرآة ، غلالة شـــفافة ... جسدا متوهجـــا وعافية ... نبضا دافقا وحياة ولذة مشتركة ... دفئا وحنانا وتجاوبـا ... وليست (مستمسكا جامعيا) فوق مرآة .

— الا تعتقد انك بعدم التفاتك او اهتمامك (بمستمسكهـــا الجامعي) قد أثرت حساسيتها ، في الوقت الذي كنت تراها مهتمة كل هذا الاهتمام بورقتهـــا بحيث زرعتهـــا فوق مرآتها ..؟

— ومن قال لك ذلك ..؟ اتصدق لو قلت لك ، انني استنسخت عن (شهادتها) عدة نسخ ثم هيأت لهـــا اجمل الاطارات ووزعتها في كل اطراف البيت ... واحدة في غرفة المعيشة ، والاخرى في غرفة الضيوف ، والاخرى في غرفة المائدة ... وهل تصدق ، انني تحملت وتصـــامست عن كل غمزات الاصدقاء والاقرباء الذين تصوروني منتفخا منتفشا بشهادة زوجتي . اضافة الى ذلك ، فما قيمة اهتمامي أو عـــدمـــه بشهادتها ما دام اهتمامي كله منصبّا عليها هي ، زوجتي ، حبيبتي ، دفء حياتي ..؟ يا عزيزي (جيم) ... لقد آمنت بأن الزوجة : التفهم ، واللحم اللدن ، والنكهـــة الحامزة ، والدم الجياش ... آمنت ان زوجة كهـــذه ، هبة كبرى وذروة حياة ... ولقد تجلت في زوجتي جل هذه القيم ـ أو خيل لي ذلك ـ فكانت بمثابة القطب لكل رؤياي ، ولقـــد استحال علي ، من ثم ، تجاوز ذلك القطب او الافلات من طوق جذبه أو الفرار من كارثة براثنه . لقد اشرعت في وجهها

كل نوافذي ، بلا شـــروط ولا مقـــدمات ، ايمانا بوجود (التفهم) وقيمته وحقيقته ... لكنني خبت وهزمت ... ابتلاع خدعة التفهم ، كانت هي نقطـة ضـــعفي ... ثغرة جدراني التي تسللت منها هاربة بعدما غرزت في قلبي سفودا من النار .

— وهل فكرت في ان تستعيض عنها بأخرى ..؟

— ما فكرت ... ولن افكر ... ولو فكرت ، فلن استعيض عنها بأية امرأة اخرى ... هه ...

— اتعتقد بانها سوف تتزوج ... او قد تجد من يتزوجها ..؟

— لم لا يا عزيزي ، وهي تملك كل هذا الثراء (الشـــكلي) المثير ..!! انت تعلم ان هناك المئـــات من نماذج البشر وهي تهرول على الارض بدون (قناع) ... تهرول على الارض بضمائرها السافرة وملامحها السافرة ... ولابد انها ستعثر ذات يوم على واحد من هؤلاء الذين يتجولون بالكثير من مواصفاتي (تفاهة .. بلاهة .. ايمان بالتفاهم .. ضعف ورخاوة) ... لم لا .. ستعثر على واحد من هؤلاء ذات يوم ... أو لعلها سترتطم بالنماذج الاخرى من البشر ... ترتطم بواحد من اولئـــك المدججين بما يكفي ويزيد من (الاقنعة) وادوات التمويه ، ليمحو من ثم ، طلاء وجهها بالبصاق ويملأ مرآتها ببصمات اصابعه العشرين .

× × ×

هذا الانفجار العـاطفي والكشف الصـريح ، كان آخر ما سمعته من الزميل ، السيد (دال) ... وكانت تلك الليلة ، هي آخر ليلة رأيته فيها . اذ سرعان ما نقله المسؤولون ـ حسب طلبه ـ الى قرية نائية اخرى ، اختارها ليخلو بنفسه هناك ويتصيد الفرصة المناسبة ، ثم يغرق في اجساد صوره السرية .. ويحلم .

رحل هو ، وبقيت كلماته جاثمة فوق صدري ، شاخصة في ذهني كلما تذكرته وتذكرت وجهه الشاحب وشفتيه الدبقتين . وكثيرا ما تصاعد في اذني صراخه ... « تنساب الاهانة عبر الف قناع » ... ونذهب لنشرب هذه الاهانة ثم نلوي اعناقنا بمرارة لنحصي ما سقط من جعبتنا وما تسلل ... اما الذي بفي وترسب ، فحصائل معفرة بالغبار ، ومساقط ميتة شيعت ببسمة قنوط أو غمزة استخفاف او بمسح ابله على الذقون ... وننسى كل شيء ، لنعود بعد ذلك متلصصين على ذواتنـــا من زاوية مختلفة فنلقي بشباكنا ونبدأ بالاصطياد . تصطاد ماذا ؟ ... تصطاد انفسنا ..؟ أم تصطاد الزمن ..؟ وأين الربح ... واين الخسارة ..؟!

كم كنت شبيها ببعض روائحك يا (دال) ... وقفت في العشرين من عمري وفي قبضتي المتشنجة سوط من نار اخذت اجلد به زمن سنواتي بنبض ظامىء حانق ... اردت هدفا ، واندفعت نحوه وانا في قمة غلياني ، فاصطدته وانا في سنواتي الثلاثين ... ثم رحت ووقفت امام مرآة كبيرة وطفقت اتحسس عضلاتي وأحدق في سحنتي الظافرة واتسم ... « انت رجل حديدي ايها الحبيب (جيم) ... تصميم وارادة ثم انتصـــار ... اردت فغنمت ،

وليمضغ المترددون مرارتهم ... انت رجل عزم وفوز ، وليشرق الفاشلون بمياههم ... سعيت لغايتك فنلتها وطوقتها وسطرت لها سبيلا ومنهجا ، وستكون كما اردت وكما رغبت » . وانحنيت - يومذاك - لقامتي في المرآة ، وانبهرت بها ، ثم مضيت لاحصد ثمار ثقتي مفتونا منتشيا .

نصطاد ، قلت ..؟ « الجراح » ايضا ، تكمن وراء الف قناع ، فما الذي سنصطاد ايها السيد (دال) ..؟ اهدافنا ..؟ أم سنواتنا ..؟ انه لخطو غير متكافيء اذا ما طرحت « الخلية » جنب « الزمن » ... يهرم زمن الخلية ثم يتفكك ويموت ... ويصمد « زمن » الزمن ويتصلد ، مدرعا ، اصم ، حيا .

كان الزمن ذكيا ثعلبا يوم تجاهل (المرآة) والغزل والانبهار .. تركها لنا هدية صغيرة متواضعة ملساء لنحصي في وهجها المنافذ والفجاج التي تلائم مقاييسنا ، ولنرى - مرورا بصوته وارادته - لحظاتنا المتهاوية ونرصد الخط البياني لمخاض القشرة واللباب ، لنرى الذي مضى والذي يمضي ... و ... ودجال من يقول لنفسه : رأيت حدود وجهي في المرآة مرتين !! انها هبة متواضعة تلك المرآة ، يا عزيزي (دال) ... وضعها بين ايدينا لنحملق فيها ونسقط في غرامها ، ولكي نرى السكة و (الصنارة) ... لنكتشف الصيد .

في لياليا الطويلة الباردة ، كنت ارى وجهك المثقل بالنوم ، وارى فمك الفاغر ، المثقل بالدبق وهو يتأوه ويغمغم .. « ما كنت تافها يا حبيبة .. لم اكن تافها .. كنت (سريريا) فحلا .. » ..

حسنا ، يا اخي (دال) وجدتك تنوء بمعضلتك ، حتى وانت في منطقة الهرب ، النوم .. ورأيت نفسي اقترب من معضلتك ثم اغرق .

في البدء : رغبت انت بها .. وارتضت هي بك ، ثم مضيتما تواكبان الحياة بعفوية وسلاسة . وفجأة ، تستيقظ في الاعماق ، ـ اعماق احدكما ـ تلك الاصوات (الداخلية) الغامضة في خطوات وجلة حذرة لتشرع في المقارنة والترجيح ، فتنكمش اضواؤك وترتعش ثم تذبل وتنطفيء ... لماذا ؟ انت لا تدري ، وقد لا تدري هي .

وفي (الاعماق) ثمة اغراء وحوافز واستجابات قد تعجز كل المفاهيم المنطقية عن كبحها او تبريرها ... القرار السري الغامض : انك ترديت ، صوتا واثرا ... ومن هناك ، اخذ ينتصب بيننا ـ خلسة او اصرارا ـ جدار من العزلة والغربة والبرود ... وكان عليّ ان اساند هذا الجدار واغذيه لكي ابعدك عن ساحتي ، ولكي اكسب تطلعي ومساري الجديدين .

الاصرار السافر شيء حسن ... انه خلاصة موقف : رفضتك فارحل ... اما الخلسة .. الم تشعر باصرار الخلسة يا سيد (دال) ..؟ الخلسة : اغتيال مزوق بالدفوف والاهازيج : انني اخونك واهينك واسطو على براءة حياتك بجبن ودناءة . ان خنقي للاصوات الرافضة في اعماقي ، يعني : انني ادعم الجدار العازل بيننا بوعي وتصميم ... ازوقه واملاه بالمرايا لكي ترى وجهك حيثما تدور وتلتفت ... لكي تشبع من ذاتك وتتخدر

وتنام ، فانسل وامرق من ورائك الى عالمي الســـرّي وعطشي السرّي . انها خطة « الفأس والشفة » ... لا بأس ان تهب لك كل صباح قبلة دسمة ، بسمة دسمة ، اما دواخلها ، فتعانق عبر كتفيك ، صورا مناقضة وتحاور قيما مناقضة .

اصبح شخيرك تلك الليلة مزعجا وآهاتك الكابوسية عاليـة ومرعبة ... لست ادري ، هل سبق وحلمت باننا ما فتئنا نسعى الى مغازلة الزمن ، لننفذ الى ساحة الخلاص بطرقنا الخاصة ..؟ ان الدماغ والجسد وسيلتان متوازيتان ، فهل وجدت زوجتك نصيرا في ان تلتمس لذائذ (الرعشة) تحت افياء الجدار الذي تقوضه ، والفأس في يدها ..؟

صرخت في وجهي اكثر من مرة : أية خيانة اشد واقتل ..؟ ان تلغ الزوجة في كبريائها وتنفجر في وجه التزاماتهـــا ، لتنتهي الى صفيحة قمامة ، ام ان ترتدي (قناعا زوجيا) تخفي وراءه الظمأ المحاصر المتطلع الى حلم آخر وتكوينات اخرى ..؟ اليس الاعتصام وراء اغوار الذات ، والانكماش على رغبات مكبوتة يعتبر شجبا لواقع قائم ..؟ الا يعتبر مراوغة بائسة وتزويرا رخيصا لتلاحم وعلاقة ..؟ انتـــا اذ نرى الى الكثيرين منـــا يسقطون ـ كقيسة مواكبة ـ فضحتها التجربة وزوال غشاء الانبهار ، نحس آنذاك باورام الاعماق وهي تبدأ بالزمجرة والتسطي والتضخم بعـــد ان آثارها ألف صدى واستفزها ألف ارهـــاص غريزي ، فنبـــادر مهووسين الى ان نحطم وتتحطم .

لا ادرى ماذا كنت تعني ايها العزيز (دال) بهذه الكلمة ... (الشرف) ..؟ لست ادري ، أي (شرف) تريد ..؟ هل تعني باننا يجب ان نتعالى عن السقوط في اشتهاء الاخرين ـ ولو نظريا ـ وان نتعفف في رغباتنا هذه ، حتى على الرؤى والاحلام ..؟ وان لم يحدث ذلك ، فهل كنت تعتبره ـ من زوجتـــك ـ خيانة ..؟ وكنت ترى ، ان الانزواء وراء (الاعماق) ، تحت ثقل شـــعور فاجع بملازمـــة (كائن مرفوض) ، ما هو الا نهش لضميرين وتمزيق لحياتين ... يجب ان يقال (لا) ... ان كنت لا تريد شريكك فقل له (لا) ... والا فسيعتبر تخطيطا مخاتلا ساما ، أو بديلا مزيفا لاشمئزاز دفين ، أو احساسا مريضا بمشاعر التفوق والاستعلاء .

هو ذا وجهك الشاحب ايها الزميل (دال) ، وقد تجرد من الحرقة والشوق والاحتجاج ... وهأنذا انظر الى فمك الاخرس واصداء صراخه ما زالت محاصرة في اذني ... اتذكرك وانت تقف لتسرد لي حواراتك (الطلاقية) الاخيرة ...

ـــ في وجهي يا سيدتي ... ارى ان تقذفي اورامك الداخلية في وجهي لكي اتفحص عالمي بعينيك .. ارى قفاي بعينيك . لكي نـــتكشف ان كان ثمة جرثومة (للانا) قد نبتت وعلقت ، وفي اي منا ... انك اذا ما رفضتني (حسّيا أو ذهنيا) فليس لي الا ان استوعب وافهم هذا (الرفض) .. وليس عليك الا" ان تجدي المبرر الدامغ لكي ارى ثغرتي فاقتنع واصمت ... اليس من المتحتم ، ان يكون مستوى

(الرفض) كمستوى الصراع الداخلي ، الورم الباطني ..؟
وكانت زوجتك ... تصرخ ...

— لحظة اتلمس (اللجام) بين شدقي ، فليس امامي من مهرب غير الذوبان في ضباب الحلم .
وكانت صرختك (الطلاقيه) الاخيرة ...

— الكبرياء يا سيدتي ... الكبرياء ... ولنسمه بأي اسم تشائين .. انني انفر من هذه الكلمة ، بيد انني ، وفي حالة ما ، لا مناص لي او لك الا ان ننفض الغبار عنها ونتعامل معها ... كنت ـ بنكوصك الباطني ـ هذا تفترسين حياتي في غفلة عني ... وذلك تدليس وخداع وخيانة . الكبرياء يا عزيزتي ليس تستمة سرية مغلقة ... قولي ما تريدين وجها لوجه ، فانا بالتالي ، لست مصيرا قاطعا لدنياك ، ولست ضربة قدر محتوم .

× × ×

كان الليل والصمت وروائح الشتاء العابرة من وراء الافق .. اشياء توقظ الحنين الى روابط الاسرة وملتقى الاصدقاء وحميمية المشاهد والاماكن التي ترك فيهـــا المرء اعز ما في نفسه واثمن ما لديه . الساعة المنضدية العتيقة ، تشير الى الثانية بعد منتصف الليل ، وكنت امص دخان سجارتي بنهم ولذة ...

انا احب الليل حبا عميقا ، واحب ان اعيشه وأتسلاه وادخن فيه ... بعد اسابيع قليلة ، سأهجر هذه القرية انا الآخر ، وارحل

بعيدا الى ارض غريبة بعيدة ... سأطمر جثتي هناك واتخلص من راسي ، ولن ارجع ... لن اعود حتى اسلخ جلدتي القديمة واتطهر ... وبعد ايام قلائل ، سيغادر السيد (واو) القرية بقشرة اخرى ... نزع كفوفه التي كان يتلمس بها العالم ثم عقمها وسرح شعره الكث وتهيأ ليمضي .

لست ادري ، ما الذي يثيرني في السيد (واو) ويشدني اليه . ولست اعرف ما الذي كنت اخشى منه ... ارى اليه الان ، وقد نام كطفل معافى انتهى من غسيله توأ ثم تدثر بلفائفه الدافئة وغاب في اعماق حلم لذيذ ، انيقا ، نظيفا ، مشرقا ... وهأنذا ارى اليه وقد عصب راسه بمنديل مترف معطر ، حرصا على سلامة شعره من الفوضى والتشويش ، في حين استقرت منشفته بين فمه ووسادته تجنبا لاستنشاق الراوئح الحامزة التي تتصاعد منها اثناء النوم .

ذات ليلة ، تأملني السيد (واو) بنظرة عميقة ساخرة ثم اردف معقبا ...

— هكذا انا ... قل عني ما شئت ... صفني بما شئت ... انا (ملقط ومرآة) ... بهذه العبارة الصغيرة ألخص حدودي يا عزيزي (جيم) ... ولك ان تسخر مني ما تشاء ..!!

— تلخص حدودك ... وتلخص ابعادك ايضا ..؟!!

— فليكن كما تريد ... حدود جسدي هذا ، اصبحت هي

ابعادي كلها ... لقد انتهت هذه السنوات الاربع ، وسوف اعود الى بغداد ... سـأعود ، لابدأ من جديد ، و ... واتزوج واحدة اخرى ... لقد انتصرت على زوائدي التي سمتني من قبل ، وتمكنت من تسوية حراشفي الثقافية .. اما (واو) القديم ، الذي تعرفه ويعرفه اصحاب الزوائد والحراشف ، فقد دفنته تحت آلاف الصفحات المسـنة بدهونات الحبر والحروف ، وحشرته في تابوت حديدي متين ثم القيته في قعر سرداب مهجور ... فاذا ما حدث واهتز في جمجمتي عرق ، وشعرت بالضعف وبالحنين الى استعراضه ، فسوف اتسلل الى السرداب ليلا ـ وفي غفلة من زوجتي الجديدة ـ لاملأ بصري من صفرته وشحوبه ، واملأ خياشيمي من روائح عفونته وتننه ... ثم ، أمرّ بأناملي على خطوط المسار السري لهزيمتي الاولى .. مع زوجتي الاولى. انني ـ يا عزيزي (جيم) ـ مصاب بتضخم الضمير والعاطفة. اذ ان ذلك الصندوق النائم في غياهب السرداب ، قد افسدني وشوه احلامي ... انه عورتي الفكرية وقبر نوافذي واسفاري ، ولسوف ادور حوله وارقص واقهقه ... انني اتشفىّ من نفسي . يمكنك ان تتخيل رجلا يتشفى من قبره ... ساكون انا هو ذلك الرجل ... وكلما توسمت في خطوط وجهي وهيئتي نأمة لاتنسجم ومعايير زوجتي وقيمها ، أو شممت روائح ورقة او حرف فوق لساني ، اسارع واهبط الى السرداب ... الى قبري الحديدي ، لاضيف اليه اقلامي ومحابري ورائحة لساني الموبوء ... صمت

على ان اهجر رقص الالسن وانغام الشفاه ... ساكتفي بلغة الاصابع ولغة السيقان ولا احاور زوجتي الا بلسان « المزمار » .. انني اسعى لاحصل على (الهزال) ... سوف ابذل قصارى ما املك من جهد لاستوى والمقاييس السائدة ... واتساوق واللون المهيأ في اسواق حضارة (الملقط والمساحيق والنتف والجلف) ... لكي انتصب ممشوقا خفيفا ملونا ، الثغ بحرف (الراء) وارطب شفتي باحدث الفكاهات الجنسية .

— يخيل لي ، انك اصبحت تزدري (واو) المقبور ...

— آه ... كلا ... كلا لو اردت الحق ... قل انني اشفق عليه ... ارثي له فقط ... ولكن ، قل لي ... انني اسألك سؤالا صغيرا : اليس من المحزن ان يقول فلاسفتنا المبجلون ... « ان الاخلاق قضية غير مصيرية ، وانها ترف اجتماعي لم يحن اوانه بعد » ..؟!!

— وكيف ترى انت ..؟

— ارى ، مثلا ... ان تذهب الى سريرك عاريا ، وتتركه عاريا .. وان الفكاهات قبيل النوم ، عافية ما بعدها عافية ..!!

— هل انت تسخر ... ام تراك اصبت بلوثة ..؟!

— حسنا ، حسنا ... نصحني احد الاصدقاء ذات مرة قائلا : اذا حدث ورزقت بطفل ، فاصنع له من أوراق دفتر مذكراتك زوارق ورقية ... انها فكرة رائعة لو تعلم ... اذ سيدرك طفلي آنذاك ظاهرة (الاوزان المعنوية) التي تنجلي بين

ورقتين عائمتين : الورقة الاولى محملة بالافكـار والحروف والارقام والفوارز ... والورقة الثانية خالية خاوية بيضاء ناصعة ... سيرى طفلي العزيز ، ان الورقتين تعومان على سطح الماء سوية دون أن تغرق أية واحدة منهما ... وحين يلتفت طفلي نحوي مندهشا مستغربا ، سوف اضع سبابتي بين شفتي وارقصهما له ثم اسمعه لحنا طفوليا معروفا ... « بر – بم – بر – بم – بر – » ... وسيغرق في ضـحك عميق متواصل الى ان يتعب ثم يغفو وينـام ... اما انا ، فسأنتهز الفرصة واتسلل الى سـردابي لاتفحص (جثتي الحديدية) واحصي اوراقها من جديد ، ثم اعود الى مخدع زوجتي فاتعرى واندس في سريري مرددا ... « بر – بم – بر – بم – بر » .

— انت تسخر من نفسك يا (واو) ... هذا تزوير ... انه هراء ...

— هه ، هه ... سخرية .. تزوير .. هراء ... ايها العزيز (جيم) ..؟ حسنا ... عندما أقرر العودة الى بغـداد واستقر هناك ، فما عليـك – لو اردت زيارتي – الا ان تصحب معك هدية مناسبة .. سوف تتفرج – بالمقابل – على طراز سريري وابهة مخدعي وفخـامة ستائري والوان (بجاماتي) ووسائدي ومناديلي ... سـوف تطلع على المرايا الهائلة التي سنزرعها – زوجتي وانا – فوق الجدران وعلى الافاريز وقرب الزوايا ... وسـتجد على جدران

مخدعي ، اكثر من تقويم ومحرار وعداد ، لانني ـ واقسم على ذلك ـ سأطارد الليل والنهار وكل الفصول ، عاريا ... ومن اجل عيون الذكرى والذكريات ، سألتقط لكل ذبذبة من ذبذبات مشاعرنا وعواطفنا ، (صورة تذكارية) مذهلة . في هذه تقرص انفي ... وفي تلك تعض شحمة اذني ... وفي الاخرى تضع انامِلها على خصلة شعري ... وفي الرابعة تعض لي شفتيها ... وفي الخامسة تتملى ـ موردة ـ صلابة ظهري ... وعشرات اخرى من الصور الوثائقية التي تغذي الثقة بالنفس والاطمئنان للحياة .

ـــ كفى .. كفى ... اخذت تهذي ...

ـــ بل انا اكثر جدية من حركاتك الرصينة وتجهمك المضحك .. تعال الى بيتي المشرق وفي يدك (هدية) مناسبة ، وسأريك روعة الحمام والمطبخ والمرحاض الخزفي الناصع ، واقودك الى ردهة القهقهات وصـــالون النوادر وغرف القيلولـــة والاسترخاء لكي تفتح شهيتك على رزمة اخرى من صـــور العشق والوله والشوق ثم أصحبك أخيرا الى الباب الخارجي المهيب ، والمشط في يدي والملقط بين اصابعي ، وفي قدمي (خفان اسفنجيان) تجنبا للضوضـــاء وكسبـــا للخفة والطراوة .

ـــ انك تهرب يا (واو) ... ليتني اعرف مِمَّ تهرب ...

ـــ مِمَّ أهرب ..؟ هذه كلمة هلامية يا عزيزي (جيم) ...

لست ادري من هو ذلك الذي قرر هذه المعادلة الحيـــة للواقع : (احلام وفراغ ثم زوجة ... احلام ويأس ثـــم زوجة ... احلام ووحدة ثم زوجة) . اما المعايير الاخرى ، أو الوجه الاخر من الانسان والعالم ، فلا تلازم الا" أدوار المراهقة العقلية ، ولا تتبع الا" من ســـنوات التهويم وراء مفردات (الاستغناء .. الانا .. الرفض .. التجاوز) .. ولا اكتم جديدا لو قلت : انني شبعت وارتويت من هذه المعايير ثم بدأت اتلفت حولي لاستكشف مواقعي وقيمي بعين أخرى .. انني لا أطيق العيش بعيدا عن المرأة .. المرأة (المرأة)، حجر زاوية .. اما النساء اللواتي اصطدمت بهن في شارع أو زقاق أو اللواتي تلمستهن أو لعقتهن عبر الصور وصفحات الورق المكتوب ، فقـــد تحولن الى هواجس والتواءات وشكوك وعقد ، ولذلك بادرت الى طرح (سنوات التهويم) من فوق منكبي ثم اخترت وتزوجت . ويوم اقترنت بزوجتي الاولى ، تصورتها ستجثو بخشوع لتزيل الغبار عن وجه كتبي واوراقي وتعقم زاويتي من الفضلات واوكار الذباب، دهشة واكبارا لمنطلقات رؤاي وطموحاتي . تخيلت ـ كأي ابله ـ كل ذلك في زوجتي ، بيد انني لم اعثر الا على امرأة ، يتساوى عندها (الكتاب ودليل التلفون) ، ان لم يكن (الدليل) اكثر خطورة وفائدة ... وجدتها لا تهيم الا بأبعاد سريرها وطرازه وجســـامته ، ولا تهوى الا ارقام وفهارس وعناوين مصانع العطور والمساحيق والدهونات ،

ولا تبرع الا في ترتيب الاحذية وتصنيف السراويل (شتوية وصيفية) ، ولا تطرد الذباب الا عن وجوه الوسائد وملابس النوم .

كنت اعتقد ، ان (الكتاب) يشيع ـ بوجوده في البيت ـ نكهة خاصة ورائحة مثيرة ويضيف للمتعايش بقربه ظلالا ومسافات اخرى ، ويمكن للمرأة ـ الزوجة ـ ان تتفيأ هذه الظلال وترتوي منها ، والا" بماذا يفسر (حملة الكتب وسدنة الافكار) مواقفهم حيال ماهية العواطف وروابط الزواج ..؟

ـــ العواطف العميقة ، أو روابط الزواج المتينة ليست كلها مقتصرة على الكتب او الثقافة ... هناك الكثير من الفاشلين والفاشلات ...

ـــ هذا صحيح ... ان هذه الامور ، ليست هي الشرط الوحيد والاخير للحصول على السعادة ... البيت ليس مؤسسة فكرية او ثقافية ، حتى وان كانت بين زوجين مثقفين ... انني بالتاكيد ، لم اكن ابغي من وراء (هواياتي الكتبية أو عوالمي) ثمنا خاصا أو (وساما) تزين به زوجتي صدري ، ولكنني آمنت يومذاك ، بأن منهجي الحياتي هذا ، وما انفقت لاجله من عصب وزمن وارق ، قد يشكل (قيمة) تعلو على سواها ، ان لم تقاربها ، وان مواصلة الحياة بجوار انسان مديد الأبعاد متعدد النوافذ ، قد تكون جديرة باثارة همة أو تصعيد حماس ... لم تنفعني كل جدلياتي او (حواراتي المنخرية) في شيء ... كانت تصغي

الي بوجه بارد جامد ، لا اثر فيه لتفهم او حسّ أو مشاركة . او انها كانت ترد عليّ بكلمات ومفردات منتزعة من حوار الافلام او المسلسلات التلفزيونية التافهة ، او تكتفي بنظرة عين جانبية تزخر بالغباء والوقاحة والاستخفاف .

— على أية حال ، انك لست وحدك المبتلى ... يلوح لي ، انك قد اسأت أو اخطأت الاختيار ، وذلك يحدث للكثيرين ، وعلى كافة المستويات ... المسألة ليست غريبة ولا شاذة .

— هذا صحيح ايضا ... ولكن ايسكنك ان تشرح لي كيف اخترت انت وبأية طريقة تزوجت ..؟ وبأي شروط ..!!! انني اعترف ـ وقد تعترف انت ـ بانها معضـــلة معقدة ، وشديدة التعقيد . انها اشبه بمحاولة اصطياد ذبابة في قبو مظلم ... حسنا ، سأترك لك أمر (الاختيارات السديدة) لعلك تستقريء فيها علم الابراج الفلكيـــة او فقه حواة الفلسفة والادب ... اما انا ، فســـأكتفي بتجربتي الاولى (لدغتي الاولى) ... سوف اغلق ـ والله ـ كل خياشيمي ومناخري الثقافية المبجلة ، ولـسوف اخصي لساني الكبير ولا اتحدث الاّ بلسان (المزمار) وهمسات الشفاه .

لقد اشتعلت يومذاك غضبـــا وجنونا ... ثرت وحطمّت وأتهمت .. ثم وجدت نفسي ـ اخيرا ـ رقما مهملا خائبا ، وفي قرية وحشية نائية ... قل لي بربك : بم تتهم زوجة تحاورك عبر مرآة ..؟ اتتهمها بالبلادة والتسطح ، ام بمزاولة احساس غريزي اصيل ..؟ وجـــدت نفسي اعيش في طـــوفان من (الحديث الى الاحداث) ... « احدث تصفيفة شعر .. احدث حذاء .. احدث

خياطة .. احدث قماش .. احدث موديل .. احدث الاحداث » . ثم ، وأخيرا .. اثار جنوني كتاب .. كتاب واحد من كتبها المقدسة .. بل مجلة واحدة ، طرحت وصرعت وجندلت كل كتبي وكل ما كنت املكه من قواميس ومجلدات ومخطوطات واثريات. « البرده » ... هل سمعت بأسم او بشيء كهذا يا عزيزي (جيم) ..؟ انها ليست قصيدة « نهج البردة » طبعا ... وانما هي اطول باعا وذراعا واعمق سطحا وقاعا ... انها مجلة « موديلات ملابس نسائية ـ داخلية وخارجية » بلا زيادة ولا نقصان ... لقد الصقت هذه المجلة في اصابعها وصدرها وعينيها واقسمت ان لا تنام الا على آخر (حكمة) من حكمها وآخر لمسة من لمساتها .

قل لي ايضا : ما الذى فقدناه في بطون تلكم المجلدات الجليلة وعن اي شيء نبحث ونتقب في احشائها ..؟ امن اجل ان تتلافى الشطط والعثرات ..؟ أم للعثور على صيغة مثالية (لكائن مطاطي) يلائم كل الازمنة والفصول ..؟!

انك اذا ما ضربت عنصرين جديرين ببعضهما ، ستجد نفسك امام عنصر جديد آخر ، ثم لا يلبث هذا العنصر الجديد قليلا الا ويتمخض عن عنصر آخر ... وهكذا ، تجد نفسك طريحا على الهامش فتنهض وتعيد الكرة من جديد ... صدقني : لقد انهكتني هذه الاحبولة وافزعتني ... انها ليست حكاية « زوارق ورقية » ..ولكنها دورة غامضة عنيدة تثير الدهشة والحيرة والسقم .

هل تذكر السيد (دال) ...؟!! لقد انتهى الى ان يستقطب كل نساء الارض في صورة واحدة وجسد واحد ... صورة جنسية واحدة تدور في فلك (زوجته) ويدور هو داخل تلك الصورة ليعب من ينبوعها ويستحلب محفزاتها ثم يغرق في (الاستثناء) . ويوم كنت (استثني) فكريا ، عجزت عن طرد صرصار حقير قارض من أبواب سعادتي وأحلامي ... كما عجزت مجلداتي وقواميسي وكل جدلياتي (المنخرية) عن طرد زوجتي من مناطق (الحلم بالآخرين) ومواقع السقوط على وسائد الغرباء. (السرداب) يا اخي (جيم) ... لم يبق لي غير السرداب المهجور ، وذلك القبر الحديدي الذى سأواظب على زيارته في غفلة من زوجتي الجديدة وطفلي ، لاجدد شتم زوايا الذباب والصراصر وروائح الارقام والسطور ، ثم اعود ادراجي واتعرى واجلس في منتصف غرفة النوم لكي ارصد دبيب الليل والنهار وعلى شفتي نغم واحد (بر - بم - بر - بم - بر - بم) .

× × ×

ترك (واو) القرية كما تركها (دال) وعاد الى بغداد ... قال لي وهو يستقر في مقعد من مقاعد السيارة العتيقة : « يوم تتسلم رسالتي الاولى ، فتأكد من انني تزوجت واستقريت ، وستكون الرسالة بمثابة دعوة مفتوحة لزيارتي ... ولكن لاتنس الهدية المناسبة !! » .

ما الذى اكتشفه ، السيد (واو) عبر تجربته الاولى ...؟ هل

كان الخط الجديد الذى رسمه وارتضاه لنفسه صحيحا ..؟ وهل من الممكن ان ينقلب الانسان على نفسه وعوالمه بمثل هذا اليسر والسهولة ..؟

لقد ايقنت ـ مؤخرا ـ ان بوسعه التلاعب بمفاهيم الصواب والخطأ بقدرة عجيبة ، وتلك ميزة كانت تثير حذري منه ، كما كانت تثير دهشتي وتجذبني اليه في نفس الوقت ، اذ انها كانت تتيح لي فرصة الدوران حول الموضوع المطروح ، ومن ثم ، اكتشاف عشرات المساقط البصرية لنقطة واحدة ... ولقد تعودت أن اسمعه وهو يختتم وجهات نظره ، بترديد جملته او لازمته المعهودة .. « .. وتلك مسألة نسبية .. »

بعد ايام قلائل ، سيحين دوري وارحل ، لكي ابدأ طريقي الى قرية اكثر وحشة ، وارض اكثر بعدا ، حاملا (خلاياي ومكتسباتي) ... وقد اعثر في تلك الارض الجديدة على جملة ختامية (نسبية) كجملة السيد (واو) اعزز بها الحصار على حساسيتي الخانقة واساوم على نصيبي من الفرح والنور .

لقد تكاثفت (نواتي وعوامل المكتسبات) لتجعل مني مخلوقا مرهقا شديد الحساسية لا يحتمل التفريط بأدق جزء من اجزاء حدوده او حدود الآخرين عبر علاقاته الحياتية . كنت اؤمن بمنطلق منطقي بسيط يتلخص في : « انت » صيغة خاصة تتحرك في عالم خاص ... و « انا » ، صيغة خاصة تتحرك في عالم خاص ، ولذلك ، يجب علينا ان لا نرتطم فنتمزق ... وان يذوب احدنا في الاخر فنتجزأ ونضيع ، لم تعد « انت » ولم اعد « انا » ...

يجب علينا ان تتماس وتتجاور فقط ، لكي ندور من ثم في محيط واحد عام ، في مجرة واحدة ...

اخترتني ـ بذهن وعين ـ كما اخترتك انا ، لكي ندعم عالمينا ، امتدادا ورقاعنا النفسية تجاوبا ومناخنا الداخلي ... كتلتان حيال ريح واحدة ومجابهتان ضد مصير واحد ... ومن خلال ذلك (الاختبار الذهني والعاطفي المحض)، يمكن ان أفهم منطق (الذوبان) في الآخر ، وافهم منطق (الايثار) من اجل الاخر .

ان من يغني لنا اغنية او خرافة « انت تساوي انا » ما هو الاّ مداهن كذوب غرضه السطو على ينابيعك وسلبك روائحك ولونك الخاص ، لكي يحصل من ورائه على تكثيف مزدوج « لاناه » هو ... ان (الخلية) أو (الفرد) ، كثيرا ما تجد نفسها غارقة في مواقف ومجابهات متباينة ، فاما ان تعتصم بحدودها وتشرع في تبادل الاخذ والعطاء بنسب متعادلة ، واما ان تتسلل الى عالم (الآخر) وتبدأ فتساوم ـ اثرة او ايثارا ـ لتنتهي من ثم الى قمة (الانا) ، أو لعلها تصاب بخيبة (الاعتصام أو التسلل) فتتخذ سبيلا شاذا يدفعها الى الانتحار ، اشمئزازا او قنوطا . لو غنيت لك « انا تساوي انت » ، فغايتي : ان انفذ من خلال جلدك وشرايينك ، أو جلد رغباتك ومزاجك ولون حياتك لكي اغتالك وانت ممتليء بنفسك ، مخدر بأفراحك ... اغتالك لكي استقطب « ذاتي » فوق كتفيك .

هكذا كانت زوجتي ، يا عزيزيّ (دال) و (واو) .إبتليت انت يا (دال) بخبيثة شرهة مخاتلة وفي « منتهى العفة والشرف »!!

وابتليت انت يا (واو) بغبية تافهة ساقطة ، وفي « منتهى الاناقة والحداثة والاشراق » ... وابتليت انا ...

آه ... كم كانت زوجتي رائعة حقا ... وجدت نفسي أدك بقدميّ على ارض براقـــة صقيلة ، وأعبّ الهواء الطري المفعم بالنضارة والضوء والسكينة ... وكان اريج الاثى وحريريتهـــا وللمسات الغنية الماهرة ، وحسيسية الاحساس بالتملك تنتشـــر في ارجاء عالمي الصغير وتضحك خفيفة فوق الحشايا والســـدل الرقيقة الناعسة ... كان كل شيء ، يهش ويرفرف ويدعو النبض المتوتر الى اللين والاسترخاء والاستسلام ، شيء شبيه بحديقة من الالوان الفتية الحية التي لا يعتريها تحوّل ولا ذبول ... كان بيتي وكر امرأة تتعبد الى رجل ... هنا جلس وهناك سيجلس .. وفي الساعة كذا ، سيعود من رحلة النهار ليضع ملابسه هنـــا ، وسيلقى بجسده في تلك الزاوية .. وكانت زوجتي ساعة بشرية لحساب الانفاس ولرصـد الحركات والاشـــارات الظـــاهرة والخفية ... وكأي بيت آخر ، كان بيتي ، أو (عش زوجتي) يزخر بنماذج منتقاة من الصور الوثائقية لمجرى عواطفنـــا ... وبماذا تتحدى الزمن ، ان لم تتحداه بالصور ..؟!!

آه ، ايها السيد (واو) ، كنت اريد ان اكون سعيدا ... ولكن كيف ..؟ الصوت الوثير ، والظـــل الوثير ، والعواطف الصقيلة المبرمجة ، كل هذه الاشياء ، لم تستطع ان تمحو التخطيط الصلد لملامح أبعادي ، أو تروض خصـــالي التي أبت ان تنعكس في مرآة أو نظرية او اطار مغلق ... والتي ظلت تهيم في قنوات

سيكة متشعبة مجهولة ... عطشي غريب الوقع ، يقودني ـ دون وعي او ارادة ـ الى ان ابحث في ذلك العالم الصغير الصقيـــل ـ بيتي ـ عن صفتي ولوني وموقعي ، ثم اسمي .. كنت واحدا من الرجال ليس الا ... رجل وظيفته ان يملأ فراغا ... لابد للبيوت من رجل ، ولابد للمرأة من رجـــل ، فكنت انا الرجل (الموجود) الذي يعود كل مساء ليسد الشاغر ويملأ الثغرات .

ســـألتني يا عزيزي (واو) : كيف تزوجت ... واقول : تزوجت بحماس مراهق وبتريث شيخ ... من هذين المزيجين ، توصلت الى واحدة من زميلاتي ... زميل وزميلة ، ما ابدع هذه اللقيا واغناها وأكثرها ثقة وطمأنينة ... « هذه المرأة لي » ... « هذا الرجل لي » ... بهذه الطريقة الغامضة التهب بيننا صراخ متبادل متكافل مزيجه النوع والجنس والتفهم بين ذاتين واعيتين .. يا ايها السيـــد (واو) .. اين أو اي محيط يطمح الانسان الى دراسة وفهم شريكه احسن من محيط الدراسة او العمل ..؟ زميل وزميلة ... وهكذا ، هرعنا لتسجيل ارادتينا وعاطفتينا في وثيقة مليحة زاهية ، ثم هرعنا الى (عشنا) لنبدأ بالحياة .

وبدأت بالحياة ... عفوا ، بدأت (هي) بالحياة ... هي الشيء والشيئان والاشياء وكل شيء ..!! انتهيت بعد هذا الانفجار المريع من (الشيئيات) الى (رقم) مرصوف .. الى (غرض) من الاغراض .. وجدت نفسي (اســـما) مجردا قد يلائم مليـارات الاجساد المذكرة ... اما وثيقة زواجي ، وثيقة (الارادة والعاطفة) فقد وجدتها تنص على : انني فلان بن فلان ، زوج فلانة بنت فلانة،

لذلك ، فسيكون بأمكانك ـ يا عزيزي (واو) ـ أن تزيل اسمي (الفلان) هذا ، وتكتب بدله اسمك أو اسم صـــديقك ، أو أي اسم من أسماء عشيرتك أو مدينتك ... المطلوب : جثـة تتعرى في الظلام وتشارك في سرير .

كانت زوايای تكنس وتنظف ، وتهيـــأ وجباتي حسب مواعيدها الدقيقة ، ثم أدفع الى عرض الشارع مصقولا لامعـــا متألقا ، لكي ارجع الى (العش) في المساء بتســـاؤلات جديدة وحيرة مضاعفة ... اعود لاناطح ببصري عددا من المرايا المزروعة في كل ركن ومنعطف .. انت بدأت تهرول وراء (الهزال والنحافة) يا عزيزي (واو) ... اما زوجتي ، فكانت تصرّ على (السنة) سنة مضاعفة الوجود ... مضاعفة (الانا) عبر عشرات المرايا التي تشير الى حضورها اينما تحركت وحيثما حلت ... وفي غرفة النوم القارهة ، اعود لاناطح ببصري مجموعة نادرة من وثائقنا الحميمة، ثم اذهب الى السرير وعلى شفتي بسمة يومية وجلة متسائلة ... واجلس على حافة السرير وانا اتمتم في يوميات مستهلكة والبســمة ما زالت قابعة بين شفتي ، في محاولة مقبولة لتبرير وجودي عاريا الى جنب عارية ... اضطجع على ظهري صامتا واحملق في الظلام . ثم ، ثم اشعر بدبيب زوجتي نحوي ، تسبقهـــا انغام البسمات الخائفة المرتعشة ... وتقترب ، وتقترب فتمس اذني بشفتيهـــا وتعض شحمتها ... واخيرا : اغتصب .

وتمضي سنة مديدة ... وبقيت انقب فيها عن حقيقةصورتي ومعالمي الخاصة وجغرافيتي ، خلال العديد من العلامات والظواهر التي وجدتها لا تشير الاّ الى وجه واحد وظل واحـــد ووجود واحد ، هو (زوجتي) ... لم اكن ضمن هذا العش الفردي ، حتى ولا ذيلا أو ظلا لذيل ... حيثما اتلفت ، أجد زوجتي جاثمة، متسلقة ، مستقرة ، ملتصقة في كل منعطف ومنحنى ... اما انا ، فما كنت الا (الشاهد المادي) على ان هذه السيدة (ذات زوج معلوم) ... وهذا الزوج هو (انا) الصقيل البراق المكويّ .. (انا) ، كوسيلة لتصريف زمن وتزجية حياة .

كان يؤرقني سؤال محض : كيف اختارتني هـــذه المرأة ، ولم ؟! ماذا كنت اعني لها ، يوم فرزتني من بين آلاف الجثث ثم زوّقتني وطرحتني في غياهب مخدعها ..؟! ومـــاذا كان معياري وجوهري ..؟! ومن خلال (مراياهـــا) ، كنت اتسعن في وجهي وادرس عناصري وأتأمل مقاييسي التي اختارتها ، فيصيح بي كل ما حولي ، وما حولي هو أجزاء زوجتي وروائحها وبصماتها وآثار اقدامها ... يصيح بي كل ما حولي : انت ، يا زوج السيدة ، وجه من الوجوه .. مقياس من المقاييس ، التي تتفق وتتطابق مع كل المطروحات الاخرى ... اكتشفت يا اخي (واو) ، انني لست الا حلقة من حلقات ابجدية كبرى ، حرف من حروف لغات البشر : « س. خ. ب. ع. ق » ليس الاّ .. اما أيهم (انا) ، فذلك

لا يشير ولا يدل على اي شيء ... المهم والاهم وما هو اكثر اهمية ، هو ان احمل شهادة ميلاد لحيتي وشـــاربي ، وتاريخ اندفـــاع نيران رجولتي لكي تقفز وتقف بجواري في ملابس عرسها ، قانعة باسمة ثم تلتقط صورا تذكارية رائعة ... لا اهمية لما كنت وما سوف اكون ... ومن الدارج والبديهي ان لا اكون انا أو انت ، وانما الذي يشغل مكانتا في الصـــورة الرائعة هو (خ ـ أو ـ ب ـ أو ـ د ـ) ... ولا بأس ان تعكس مرايا المخدع الكبيرة ، هيكلا عاريا آخر غير هيكلك او هيكلي ... المطلوب : جثة عارية في ظلام .

هكذا ، يا عزيزيّ (دال) و (واو) ... وجدت نفسي رجلا لمخدع انيق جاهز ، وبصمة اصبع في وثيقة زواج ... رجلا باهتا مبهما لا أثر له ولا أسم له ولا ظل ولا حدود .

مايس / ١٩٧١